



أكدت الولايات المتحدة مجدداً الخطوط الحمر في سوريا. التأكيد يثبت جدية سياستها في هذا البلد. لم يعد هناك مجال للتشكيك. تصدى قواتها وطيرانها لقوات شعبية تابعة للنظام في دمشق قبل أيام رسالة لا لبس فيها، إلى جميع المخربين في الصراع على بلاد الشام. رسالة إلى النظام وإلى حليفه الروسي والإيراني، وإلى تركيا أيضاً. عنوانها لا يحتاج إلى اجتهاد: لا يمكن تغيير قواعد الاشتباك. ومنمنع التعرض لـ«قوات سوريا الديمقراطية» التي تدعمها واشنطن شرق البلاد وشمالها. لم تكن العملية الأولى من نوعها. سبق أن ضربت قوات للتحالف الدولي خريف عام 2016 قوات للجيش السوري وكبدته خسائر فادحة.

لكن واشنطن اعترفت يومذاك بأن الضربة كانت من «خطأ». لكن الطائرات الأمريكية أغارت الربيع الماضي على قوات موالية للنظام السوري حاولت الاقتراب من قاعدة التنف. ثم أسقطت بعد نحو شهر طائرة للقوات النظامية عقاباً لها على قصف قوات كردية في محافظة الرقة. تمثل الضربة الأخيرة إصراراً أميركياً على حماية منطقة تشكل نحو أربعين في المئة من بلاد الشام. هذه «حصتها» التي لا يمكن دمشق أن تقترب منها. ولا يمكن طهران، مهما توعدت بتحرير كل سوريا، أن تتقدم إليها. ولا يمكن موسكو مهما أفلقتها سياسة إدارة الرئيس دونالد ترامب أن تتعرض لما تعتبره هذه الإدارة المصالح الاستراتيجية الأمريكية. ولا يمكن أنقرة أن توجه عملية «غصن الزيتون»، مهما أعلنت الصوت متوعدة بالتقدم إلى موقع الكرد في منبج وغيرها من مناطق تحت «إدارتهم الذاتية» شرق الفرات.

روسيا دانت العملية الأميركيّة الأخيرة في دير الزور. وانتقدت تحركات القوات الحكومية السورية لعدم تنسيقها عمليات الاستطلاع التي تقوم بها «القوات الشعبيّة» التي منيت بأكثـر من مئة قتيـل. فهي تدرك جيداً بعد تجربـة مؤتمـر سوتشـي، وبعد قيام «مجموعة الخمس» ونشاط فرنسـا المتـجدـدـ فيـ المـنـطـقـةـ،ـ أـنـهـ لاـ تـسـتـطـعـ تـجـاهـلـ أوـ تـغـيـيرـ آـلـيـاتـ الـصـراـعـاتـ الدـولـيـةـ.ـ فـهـيـ لـيـسـتـ وـحـدـهـ فـيـ السـاحـةـ.ـ لـاـ يـمـكـنـهـ تـجـاهـلـ جـمـيعـ الـقـوـىـ الدـولـيـةـ وـالـإـقـلـيمـيـةـ وـالـمـحـلـيـةـ الـمـتـاـحـرـةـ فـيـ الـمـيدـانـ السـوـرـيـ.ـ وـعـلـيـهـ اـحـتـرـامـ الـمـظـلـةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ شـمـالـ شـرـقـيـ بـلـادـ الشـامـ.ـ أـمـاـ اـتـهـامـهـاـ وـاـشـنـطـنـ بـأـنـهـ تـرـيدـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ أـهـمـ حـقـولـ النـفـطـ فـيـ مـنـطـقـةـ دـيرـ الزـورـ فـأـمـرـ مـبـالـغـ فـيـ.ـ السـيـاسـةـ الـجـديـدـةـ لـوـاـشـنـطـنـ فـيـ سـوـرـيـةـ وـالـمـنـطـقـةـ عـمـومـاـ طـوـتـ سـيـاسـةـ إـلـادـارـةـ السـابـقـةـ لـبـارـاكـ أـوـبـاـمـاـ.ـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ حـاضـرـةـ بـقـوـةـ الـآنـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ،ـ وـحـاضـرـةـ أـيـضـاـ فـيـ الـعـرـاقـ.ـ وـيمـكـنـ القـوـلـ أـنـ قـوـاعـدـهـ الـعـسـكـرـيـةـ فـيـ إـلـقـلـيمـ كـلـهـ تـشـكـلـ طـوـقاـ مـحـكـماـ عـلـىـ الـحـضـورـ الـرـوـسـيـ الـمـيـدـانـيـ الـمـسـتـجـدـ عـلـىـ السـاحـلـ السـوـرـيـ.ـ فـهـيـ مـوـجـودـةـ أـيـضـاـ فـيـ الـمـنـطـقـةـ الـجـنـوـيـةـ الـمـاحـازـيـةـ لـحـدـودـ الـأـرـدنـ.ـ هـذـاـ مـنـ دـوـنـ الـحـدـيثـ عـنـ سـيـاسـةـ حـلـيفـتـهاـ إـسـرـائـيلـ الـتـيـ بـاتـ غـارـاتـهاـ شـبـهـ رـوـتـينـيـةـ عـلـىـ مـوـاـقـعـ لـلـنـظـامـ فـيـ دـمـشـقـ وـحـلـفـائـهـ مـنـ مـيـلـيشـيـاتـ تـرـعـاهـاـ إـيـرـانـ.ـ مـنـ هـنـاـ،ـ أـهـمـيـةـ الـضـرـبةـ الـأـمـيـرـكـيـةـ فـيـ مـنـطـقـةـ دـيرـ الزـورـ.ـ فـهـذـهـ تـشـكـلـ مـوـقـعاـ اـسـتـرـاتـيـجـيـاـ عـلـىـ الـحـدـودـ مـعـ الـعـرـاقـ.ـ وـيمـكـنـ الـانـطـلـاقـ مـنـهـ لـاحـقاـ لـقـطـعـ الـطـرـيقـ الـتـيـ تـسـتـمـيـتـ طـهـرـانـ لـلـحـفـاظـ عـلـيـهـ سـالـكـةـ إـلـىـ سـاحـلـ الـبـحـرـ الـأـبـيـضـ الـمـتو~سـطـ.ـ

الوجود العسكري الروسي في سوريا ليس مهدداً. لكنه بالتأكيد يواجه مرحلة جديدة من التحديات. ستجد موسكو نفسها قريباً مجبرة على ضخ مزيد من العديد والعتاد إلى هذا البلد، بعد إعلان الرئيس فلاديمير بوتين من قاعدة حميميم «النصر» على الإرهاب وبده سحب بعض القوات من سوريا. سيشكل هذا الوضع استنزافاً لمقدراتها وقواتها. ولا يقتصر هذا التحدى على الشق العسكري، بل يتعداـهـ إـلـىـ الشـقـ السـيـاسـيـ.ـ سـلـمـتـ الـدـيـبـلـوـمـاـسـيـةـ الـرـوـسـيـةـ فـيـ سـوـرـيـةـ بـأـنـهـ لـاـ يـمـكـنـهـ الـمـضـيـ وـحـيـدةـ فـيـ رـسـمـ مـعـالـمـ التـسـوـيـةـ.ـ فـهـنـاـكـ «ـمـجـمـوعـةـ الـخـمـسـةـ»ـ،ـ وـهـنـاـكـ الصـوتـ الـفـرـنـسـيـ وـالـأـوـرـوـبـيـ عـمـومـاـ الـبـاحـثـ عنـ دـورـ وـإـنـ مـتأـخـراـ.ـ وـهـنـاـكـ تـحـرـكـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ لـإـدانـةـ نـظـامـ الرـئـيـسـ بـشارـ الأـسـدـ باـسـتـخـدـامـ أـسـلـحةـ كـيـماـوـيـةـ،ـ وـهـذـهـ كـرـةـ نـارـ تـكـبـرـ يـوـمـيـاـ وـقـدـ تـنـفـجـرـ بـوـجـهـ دـمـشـقـ وـحـلـيفـتـهاـ عـاجـلاـ لـآـجـلاـ.ـ وـأـخـطـرـ مـنـ هـذـهـ الـمـسـتـجـدـاتـ،ـ تـواـجـهـ رـوـسـيـاـ تـهـدـيـداـ لـانـفـرـاطـ عـقـدـ تـفـاهـمـهاـ مـعـ كـلـ مـنـ إـيـرـانـ وـتـرـكـيـاـ،ـ خـصـوصـاـ بـعـدـ التـبـاـيـنـ الـكـبـيرـ بـيـنـ شـرـيكـيـهـ فـيـ آـسـتـانـةـ.ـ يـمـكـنـهـ أـنـ تـوـهـمـ الـوـلـاـيـاتـ الـمـتـحـدـةـ وـالـدـوـلـ الـتـيـ تـصـرـ عـلـىـ دـورـ الـمـنـظـمةـ الـدـولـيـةـ فـيـ إـيـجادـ التـسـوـيـةـ سـيـاسـيـةـ،ـ بـأـنـهـ تـسـاـهـمـ فـيـ تـعـبـيـدـ الـطـرـيقـ إـلـىـ ذـلـكـ عـبـرـ «ـمـؤـتمـرـ الـحـوارـ»ـ وـغـيـرهـ.ـ لـكـنـهـ تـعـلـمـ جـيدـاـ أـنـ الرـئـيـسـ الـأـسـدـ وـالـمـجـمـوعـةـ الـمـحـيـطـةـ لـاـ يـعـنـيـهـ أـيـ حلـ.ـ وـهـوـ يـلـقـيـ دـعـمـاـ وـاـضـحـاـ مـنـهـاـ وـمـنـ إـيـرـانـ.

لا يعني ذلك أن الكرملين لا يتمسك بقوة بالقاعدتين في حميميم وطرطوس عندما سوق أنها خط دفاع متقدم عن روسيا ودورها الدولي المتصاعد. وأعلنت وزارة الدفاع الروسية قبل أيام أنها تعمل على تعزيز قواعد انتشار قواتها في سوريا، بعد إسقاط إحدى طائراتها الحربية وبعد تعرض قاعدتها لهجمات صاروخية وهجمات بطائرات «درون». ولا تخفي موسكو معارضتها الخطـةـ الإـلـاصـلـاحـيـةـ الـتـيـ تـعـمـلـ عـلـيـهـ الدـوـلـ الـخـمـسـةـ (ـأـمـيـرـكـاـ وـفـرـنـسـاـ وـبـرـيـطـانـيـاـ وـالـسـعـوـدـيـةـ وـالـإـمـارـاتـ)،ـ لـأـنـهـ تـخـشـيـ أـنـ يـنـتـهـيـ تقـلـيـصـ صـلـاحـيـاتـ الرـئـيـسـ وـتـغـيـيرـ تـرـكـيـبـ الـحـكـومـةـ وـمـجـلـسـ النـوـابـ إـلـىـ إـعادـةـ الـنـظـرـ فـيـ الـاـتـفـاقـ الـذـيـ منـحـتـ بـمـوجـهـ دـمـشـقـ الـقـاعـدـتـيـنـ شـرـعـيـةـ الـبـقاءـ لـخـمـسـيـنـ سـنـةـ قـابـلـةـ لـلـتـجـديـدـ كـلـ 25ـ سـنـةـ.ـ صـحـيـحـ أـنـهـ «ـأـهـدـتـ»ـ مـرـغـمـةـ إـلـىـ الـمـبـعـوثـ الـدـولـيـ سـتـيفـانـ دـيـ مـيـسـتـورـاـ الـعـلـمـ مـعـ «ـلـجـنةـ الـدـسـتـورـ»ـ عـلـىـ إـعـدـادـ دـسـتـورـ بـإـشـرافـ أـمـمـيـ،ـ لـكـنـ الصـحـيـحـ أـيـضـاـ أـنـ لـاـ ضـمـانـ سـيـرـغـمـ الـنـظـامـ فـيـ الـجـوـلـاتـ الـمـقـبـلـةـ عـلـىـ تـقـدـيمـ التـنـازـلـاتـ الـمـطلـوـبـةـ،ـ مـاـ دـامـ أـنـهـ «ـحـرـفـ»ـ الـبـيـانـ الـنـهـائـيـ لـمـؤـتمـرـ الـحـوارـ،ـ وـقـدـمـهـ وـطـهـرـانـ

روسيا تدرك جيداً فحوى الرسالة الأميركيّة الأخيرة من دير الزور، تدرك قواعد «الحرب الباردة». ومثلها أيضاً دمشق وطهران.

صحيح أن إيران دانت الضربة الأميركيّة الأخيرة، وأن الرئيس حسن روحاني هاجم الوجود الأميركي في بلاد الشام، متهمًا واشنطن بالسعى إلى تقسيم هذا البلد. لكن الصحيح أيضاً أنه واقعي وبرغماتي أمام «العواصف» التي تهب عليه من الداخل والخارج. ومثلاً دعا إلى سماع صوت شعبه الناقم، أبدى استعداداً للحوار من أجل حل مشكلات المنطقة، «خصوصاً مع الدول الإقليمية»، ومع «بلدان ليست من المنطقة»، في إشارة إلى الولايات المتحدة. ورأى أن حسن تنفيذ الاتفاق النووي يفتح الطريق للبحث في ما تثيره إدارة ترامب وحكومات أوروبية في شأن دور بلاده في المنطقة وقضايا أخرى. يبقى أن يدرك الرئيس رجب طيب أردوغان الذي تستقبل بلاده هذا الأسبوع وزير الخارجية الأميركي ريكس تيلرسون ومستشار الأمن القومي هربرت ماكماستر، فحوى الرسائل الأميركيّة. وأن يخفض من سقف تهدياته للكرد والنظر في أبعاد خصومته المتمادية مع واشنطن. فالجميع يعرف جيداً أن توغل قواته في سوريا يظل رهن جملة من التفاهمات الضرورية، أو رهن أكثر من ضوء أخضر. فهو إن لم يعر اهتماماً كبيراً لاعتراض إيران التي ربما كانت ترغب في مغازلة الكرد، لا يمكنه تجاهل موقف أميركا وروسيا. فالأخيرة أمهلته ولا تزال تمهله من أجل نشر قواته في منطقة إدلب وإناء وجود الفصائل المتشددة وعلى رأسها «جبهة النصرة»، وقد لا تسمح له بتوسيع حربه على الكرد.

مهمة المسؤولين الأميركيين في أنقرة يجب ألا تكون صعبة. هناك مصلحة مشتركة في التهدئة. نجاح السياسة الأميركيّة في سورية تفيد منه تركيا أيضاً. لذلك، إن مواصلة قوات أردوغان حملتها على الكرد في مناطق سيطرتهم لا يخدم هذه المصلحة مستقبلاً. لا حكمة في دفع «قوات سورية الديمقراطية» و«حزب الاتحاد الديمقراطي» إلى تجديد الصلات بالنظام السوري. لن يتزدّد الحزب في تسليم موقعه إلى قوات النظام وحليفه الإيراني والروسي إذا تعاظم الضغط العسكري على هذه «القوات». ويعني ذلك ببساطة تعزيز هيمنة الجمهورية الإسلامية في بلاد الشام على حساب مصالح تركيا وفضائلها الأمني. لذلك، من مصلحة واشنطن وأنقرة إيجاد تفاهم يقضي بوقف هذه الحملة على عفرين عند حدود معينة. ومن مسؤولية تيلرسون وماكماستر طمانة الحليف التركي التقليدي والعضو الأساسي في حلف شمال الأطلسي إلى حرص بلادهما على عدم السماح بهز وحدة الأراضي السورية، وعدم السماح للكرد بإعلان كيان مستقل يشكل قاعدة لحزب العمال الكردستاني. وإذا كان لسياسة أميركا هدف رئيسي هو مواجهة تمدد إيران انطلاقاً من سورية، فإن تحقيق هذا الهدف يخدم المصالح الاستراتيجية لتركيا التي وجدت نفسها قبل سنتين مرغمة على الانجرار نحو موسكو وطهران بعيداً من علاقاتها التاريخية مع دول «الناتو». وليس من مصلحتها اليوم إعادة تأهيل النظام وتحويل بلاد الشام قاعدة للثنائي الإيراني والروسي. هدفها كما هو هدف حلفائها التقليديين إزاحة الرئيس الأسد والحفاظ على مصالحهم في بلاد الشام فلا تسقط كلها بيد إيران وروسيا خصميها التاريخيين.

المصادر:

الحياة